

تفنيد الاعتداد  
بغرائب ابن خويزمنداد

تأليف  
الأزهري  
عفا الله عنه

١٤٢٤هـ  
بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، والصلاة والسلام على من جاءت شرعته بحد السارق والمارق، وعلى آله وصحبه وبعد ..

فمنذ أن كتب أحد المبتدعة كتابه في الطعن على أهل السنة، والحشوية مغرمون بالنقل من كتابه، على كثرة عاطفه وباطله، وزيفه وخلله، وإن من الباطل الذي أكثر أهل الحشو من نقله عنه : كلمة منسوبة لأحد علماء المالكية يقال له ابن خويزمنداد، ففرحوا بها - وأسأؤوا فهمها - وتركوا سائر أئمة المالكية وعلماءهم لا يقيمون لهم وزناً !! وقد تجدد من أحد أهل الحشو نقل كلام ابن خويزمنداد هذا، فكان لا بد من مقال يوضح الأمر ويزيل الإشكال، حتى لا يضلوا العوام، فننقل كلام هذا الحشوي ثم ننقضه عليه بحول الله تعالى وطوله لا بحولنا ولا بقوتنا، متوكلين عليه تعالى فنقول : قالت الحشوية :

روى حافظ المغرب وعلمها الفذ ابن عبد البر بسنده عن فقيه المالكية بالمشرق ابن خويزمنداد أنه قال في كتاب الشهادات شرحاً لقول مالك : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، وقال :  
( ( أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً ، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استنيتب منها )) اهـ.

هذا ما نقله الحشوي، فما هي مصداقية هذا القول وذلكم الادعاء يا ترى؟؟.

سنناقش هذا النقل في مباحث:  
الأول : التعريف بابن خويزمنداد.  
الثاني : مدى صحة القول المعزور إليه.  
الثالث : معنى القول المعزور إليه.  
الرابع : موقف ابن عبد البر من كلام ابن خويزمنداد.  
الخامس : موقف علماء المالكية عموماً.  
السادس : مفهوم هذا القول عند الحشوية وبيان تناقضهم.  
ثم الخاتمة.  
المبحث الأول (التعريف بابن خويزمنداد)

ترجمته في ترتيب المدارك للقاضي عياض ٦٠٦/٢

(( أبو بكر بن خويزمنداد رحمه الله

ويقال خوين منداد، إذ كذا كناه أبو إسحق الشيرازي، وسماه محمد بن أحمد بن عبد الله. ورأيت على كتبه تكتيته بأبي عبد الله، وفي نسبته : محمد بن أحمد بن علي بن إسحق، وقال الشيرازي أيضاً : تفقه بالأبهري. وسمع الحديث، يروي عن أبي [ بكر بن ] داسة، وأبي الحسن التمار، وأبي الحسن المصيصي، وأبي إسحق التجيبي، وأبي العباس الأصم، وله كتاب كبير في الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وأحكام القرآن، وعنده شواذ عن مالك، وله اختيارات وتأويلات على المذهب في الفقه والأصول لم ]

يعرج [ عليها حذاق المذهب، كقوله في بعض ما خالفه فيه من الأصول : أن العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار، ] وإن خير الواحد [ يوجب العلم، وفي بعض مسائل الفقه حكايته عن المذهب : أن التيمم يرفع الحدث، وأنه لا يعتق على الرجل سوى الآباء والأبناء، ولم يكن بالجيد النظر، ولا بالقوي الفقه، وقد تكلم فيه أبو الوليد الباجي، قال : إنني لم أسمع له في علماء العراق بذكر. وكان يجانب الكلام جملة، وينافر أهله، حتى تعدى ذلك إلى منافرة المتكلمين من أهل السنة، وحكم على الكل بأنهم من أهل الأهواء الذين قال مالك في مناكحتهم وشهادتهم وإمامتهم وعبادتهم وجنائزهم ما قال . رحمه الله (( اهـ.

ترجمته عند الذهبي والحافظ ابن حجر في لسان الميزان ٣٢٩/٥

(( محمد بن علي بن إسحاق بن خوزيمنداد ويقال خوازمنداد الفقيه المالكي البصري يكنى أبا عبد الله، هذا الذي رجحه عياض، وأما الشيخ أبو إسحاق فقال في الطبقات: محمد بن أحمد بن عبد الله بن خوازمنداد، يكنى أبا بكر، تفقه بأبي بكر الأبهري، وسمع من أبي بكر بن داسة، وأبي إسحاق الهجيمي، وغيرهما، وصنف كتباً كثيرة منها: كتابه الكبير في الخلاف، وكتابه في أصول الفقه، وكتابه في أحكام القرآن، وعنده شواذ عن مالك، واختيارات وتأويلات لم يعرج عليها حذاق المذهب، كقوله: إن العبيد لا يدخلون في خطاب الأحرار، وإن خير الواحد مفيد العلم، وإنه لا يعتق على الرجل سوى الآباء والأبناء. وقد تكلم فيه أبو الوليد الباجي، ولم يكن بالجيد النظر، ولا بالقوي في الفقه، وكان يزعم أن مذهب مالك أنه لا يشهد جنازة متكلم، ولا يجوز شهادتهم، ولا مناكحتهم، ولا أمانتهم، وطعن ابن عبد البر فيه أيضاً، وكان في أواخر المائة الرابعة)) اهـ.

ترجمته عند الإمام الشيرازي في الطبقات ص ١٥٧

(( ومنهم أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الله المعروف بابن كواز، تفقه بأبي بكر الأبهري، وله كتاب كبير في مسائل الخلاف، وكتاب في أصول الفقه، وله أحكام القرآن )) اهـ.

ومع ما ترى من اختلاف في اسم ابن خوزيمنداد عند الشيرازي - حتى كأنه شخص آخر - إلا أن عياض يؤكد على أن الشيرازي قد ذكره في طبقاته، ولو لا هذا لظننته شخصاً آخر، وكذلك الذهبي قال في تاريخ الإسلام في وفيات ٣٩٠ هـ ما نصه : (( وذكره أبو إسحاق في الطبقات فقال فيه المعروف بابن كواز )) اهـ .  
وذكر وفاته عند الذهبي في وفيات سنة ٣٩٠ هـ تقديري كما يتضح من اللسان.

[ فائدة في ضبط خوزيمنداد ]:

قال الفيروزآبادي في القاموس المحيط ٢٩١/١ ط دار الحديث :  
(( وَخُوَيْزِمُنْدَادُ بضم الخاء وكسر الزاي وفتح الميم وسكون النون والد الإمام أبي بكر المالكي الأصولي )) اهـ.

هذا ما ذكره المترجمون لابن خوزيمنداد، وليس عند الذهبي ولا الصفدي ولا ابن فرحون في الديباج ولا ابن مخلوف في شجرة النور ولا غيرهم زيادة على الذي هنا.

فإن قال قائل :

فما تقولون فيما قاله القاضي عياض في مقدمة ترتيب المدارك ونصه ٥١/١ :

(( وكذلك ذكر - [يقصد الإمام الباجي] - في ابن خوزيمنداد وهو في شهرته وكثرة تصانيفه - حيث لا يذكر - أنه مجهول، وقال أن أحداً من أئمتنا البغداديين لم يذكره، وهذا الشيرازي قد ذكره في كتابه، وهذا أبو محمد عبد الوهاب يحكي عنه ويقول فيه : قال أبو عبد الله البصري..)) اهـ.  
أفلا يتعارض القول بشهرته هنا مع ما تقدم في ترجمته؟؟

قلنا : هذا لا يتعارض مع ما تقدم ذكره في ترجمته، فالقاضي عياض الذي قال ما قال في المقدمة، هو الذي ترجم لابن خوزيمنداد بما تقدم، فهو صاحب القولين، ولا تعارض بينهما، لأن كلام عياض في المقدمة هو اعتراض على دعوى (جهالة) ابن خوزيمنداد، بينما كلامه في الترجمة فيما بعد لا علاقة له بدعوى الجهالة، بل يكون ابن خوزيمنداد وإن كان معروفاً

ومذكورا لكنه قليل الشأن، خفيف الوزن، عفا ذكره، واندثر خبره، وانطفأت شهرته، وليس في ترجمته ما يعليه ويرفعه إلى درجة كبار أئمة المذهب، هذا مقصود عياض، ألا ترى أن عياضا قال : (حيث لا يذكر - أنه مجهول) ! يريد الاعتراض على دعوى الجهالة لعدم العلم بذكره، وأن كون الإمام الباجي لم يسمع لابن خويزمناد بذكر لا يعني أنه مجهول، فبين عياض أنه مذكور عند الشيرازي وعبدالوهاب المالكي، فليس من عفا ذكره، وزالت شهرته بالمجهول ضرورة، هذا مراد عياض كما هو واضح، وانظر ترجمة أبي سعيد القزويني في الترتيب ٦٠٤/٢ ففيه ما يؤيد هذا، وليس دفع الجهالة عن ابن خويزمناد بنافعه شيئا، لأنه وإن كان غير مجهول إلا أن عياضا وغيره بينوا أنه ضعيف الفقه والنظر، كثير الشذوذ والمخالفة، وقد زال ذكره حتى جهله الباجي. فهل من أجل هذا الضعف ذكره الذهبي والحافظ ابن حجر في اللسان أم من أجل الجهالة تقديما لقول الباجي فيه؟؟ الظاهر عندي أنه من أجل ضعفه لا جهالته.

فإن قال قائل:

ما قولكم في كلام العلامة محمد بن عبدالرحمن الغزي الشافعي المتوفى سنة ١١٦٧هـ في ديوان الإسلام ونصه : (( ابن خويزمناد: محمد بن أحمد بن عبد الله، الإمام العلامة شيخ المالكية أبو بكر البغدادي، له مصنفات في الفقه والأصول توفي سنة ٣٩٠ )) اهـ .

فالجواب : هذا فيه عدة ملاحظات منها أن شيخ مشايخنا الإمام الغزي من متأخري مشايخ الشام جدا، وقصاره النقل، فكأنه أحب أن يطمط الترجمة بالألقاب الشائعة في عصره، فلم يسلم من المبالغة، وإلا فإن ابن خويزمناد بصري وليس بغدادي، كما أن وفاته هذه تقديرية باتفاق، ولم يذكرها أحد على التحقيق، وأما وصفه بالإمام العلامة شيخ المالكية فلا مستند له ولا قائل به من معتمدي مذهب مالك، فهم الفيصل في هذا الشأن، ولكن الشيخ لم ينفرد بتلقيب ابن خويزمناد بالإمامة، فقد تقدم نحوه عن الفيروزآبادي الشافعي صاحب القاموس، وهذا ابن تيمية يفعل ذلك أيضا بلا مستند فيقول ابن تيمية في الفتاوى الكبرى ٥ / ٢٤٨ :

(( محمد بن خويزمناد إمام المالكية في وقته في العراق )) اهـ.

وهذا كلام لا أصل له، فأصحاب الرجل من المالكية أعرف بصاحبهم من غيرهم، فهؤلاء فقهاء مذهب مالك والمصنفون في الطبقات قد تقدم كلامهم، فمن أين لابن تيمية أو غيره أن يزيد عليهم، وما حجته فيما ذكر ولا سبيل له أصلا للتعرف على منزلة ابن خويزمناد إلا من خلال كتب تراجم المالكية أصلا كترتيب المدارك، أم سيكون ابن تيمية أعلم بالرجل من ابن عبدالبر أو أبي الوليد الباجي أو القاضي عياض ونحوهم؟؟!! وعبارة الذهبي والصفدي أنه من أئمة المالكية في العراق أحسن بكثير من عبارة ابن تيمية وأقرب إلى الواقع، وأدق من ذلك قول القرطبي عنه أنه من (علمائنا) يعني المالكية.

أمثلة تؤكد شذوذات ابن خويزمناد :

وإذا كان ابن خويزمناد قد ذكر ونعت بالشذوذ عن المذهب في مسائل شتى مع ضعف الفقه فلنذكر أمثلة تؤيد ذلك:

قال القرطبي في تفسيره ١٠٥/٦ :

(( قال أبو عمر بن عبد البر ما أعرف كيف أقدم ابن خويزمناد على أن جعل الصحيح من المذهب ما ذكر وعلى خلاف جمهور السلف وعامة الفقهاء وجماعة المالكيين!! .. )) اهـ .

وعبارة الإمام العيني في عمدة القاري ١٢/٤ :

(( قال أبو عمر : كيف أقدم على أن جعل هذا صحيحا وعلى خلافه جمهور السلف وعامة الفقهاء وجماعة المالكيين !! )) اهـ.

وقال القرطبي في تفسيره ١٧٣/٨ :

(( قاله ابن خويزمناد وحكاه عن المذهب وهذا لا ينبغي أن يعول عليه )) اهـ.

ولما عزى ابن خويزمناد لمالك أن خبر الواحد يفيد العلم :

(( نازعه فيه المازري بعدم وجود نص له فيه )) اهـ.

كما في تدريب الراوي ٧٥/١

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ٢٢٣/٢ عن رفع اليدين مع التكبير في المواطن الثلاثة:

((وحكاه ابن خويزمناد عن مالك وهو شاذ )) اهـ .

وقال الحافظ ١٢٢/٤ :

((ونقل ابن خويزمنداد عن الشافعي مسألة ابن سريج، والمعروف عن الشافعي ما عليه الجمهور)) اهـ.

وقال ابن حزم في (الأصول والفروع) على عادته في طول اللسان ص ١٥٠ :  
(( وقد أدى السخف والضعف والجهل بحدود الكلام ممن يقع في نفسه أنه هو عالم وهو المعروف بخويزمنداد المالكي أن جعل للجملات تمييزاً )) اهـ.

وقال في (الإحكام) ٤٤١/٤ :

((وقد ذكر رجل من المالكيين [ من أهل البصرة ] يلقب [يعرف بابن ] خويزمنداد أن للحجارة عقلاً!! ولعل تمييزه يقرب من تمييزها، وقد شبه الله قوما زاعوا عن الحق بالأنعام وصدق تعالى [ إذ قضى ] أنهم أضل سبيلاً [ منها ] .. )) اهـ . وقد تناوله بالطن في غير هذين الموضوعين أيضاً على عادته.

[ الخلاصة ]:

يظهر الآن من خلال هذه الترجمات عدة أمور يعيننا منها التالي :

- ١ - الاختلاف في اسمه.
- ٢ - الاختلاف في كنيته.
- ٣ - عدم تحديد تاريخ وفاته.
- ٤ - عنده شذوذات عن مالك.
- ٥ - له اختيارات وتأويلات لم يعول عليها محققو المذهب.
- ٦ - لم يكن بالجيد النظر ولا بالقوي الفقه.
- ٧ - تكلم فيه أبو الوليد الباجي ولم يسمع له بذكر في علماء العراق.
- ٨ - تعصبه على متكلمي أهل السنة.
- ٩ - طعن عليه ابن عبد البر .

ومن هنا يتضح أن ابن خويزمنداد لا يعدو أن يكون أحد علماء المالكية بالعراق، وأنه ليست له تلك القيمة الكبيرة عند المالكية، وليس بالذي يعول على كلامه، فيهجر كلام أئمة المذهب من أجل خلافاته وشذوذاته، ومن ثم فإن ما ينقل عنه من شذوذ - كالنقل الآتي - مما لا قيمة له سواء صح عنه أم لم يصح، لكننا مضطرون للتعريح على مدى صحة النقل عنه لاستيفاء المباحث.

المبحث الثاني ( مدى صحة القول المعزو إليه )

نظرنا في هذا المبحث منحصر في مطلبين:

الأول : في مصدر هذا النقل.

الثاني : في مدى صحة نسبته لابن خويزمنداد في ذلك المصدر.

الأول : مصدر النقل عن ابن خويزمنداد

ربما تقف على النص المنقول عن ابن خويزمنداد في أكثر من كتاب، ككتب ابن تيمية، أو (صون المنطق) للسيوطي، أو مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده، أو غيرها، وأغلبهم قد نقله من كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لأبي عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ، أو نقله عن ناقل عنه، حتى أن ظاهر كلام ابن تيمية يفهم منه أن ابن عبد البر هو المصدر الأوحى لكلام ابن خويزمنداد ! بدليل أن الإمام أبا حامد الغزالي لما نقل في قواعد العقائد من كتابه (إحياء علوم الدين) قول مالك إذ قال أبو حامد (إتحاف السادة المتقين) ٧٦/٢:

(( وقال مالك رحمه الله أيضاً : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء .. )) اهـ.

لما نقل أبو حامد هذا - دون أن يعزوه إلى مصدر - جاء ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل ١٥٦/٧ فقال تعليقا على نقل أبي حامد السالف :

(( وقد نقل من ذلك ما نقله من كتاب أبي عمر بن عبد البر الذي سماه فضل العلم وأهله وما يلزمهم في تأديته وحمله (...)) وقال أيضا:

(( هكذا ذكره عنه ابن عبد البر ومنه نقل ذلك أبو حامد لكن كنى عن التصريح بذلك)) اهـ.  
فلم يحتط ابن تيمية لنفسه أن يقول قائل : لعل أبا حامد نقل ما نقل من غير كتاب ابن عبد البر!  
فأشبه هذا الصنيع من ابن تيمية أن النقل المذكور منقول عن ابن عبد البر حيثما وجدته من كتاب تقدم أو تأخر، وفيه نظر سيأتي بيانه.

وهذا ابن تيمية ينقل النص مستشهدا به فيعزوه أيضا لابن عبد البر، قال ابن تيمية في الفتاوى الكبرى ٥ / ٢٤٨ :

(( قال محمد بن خويزمنداد إمام المالكية في وقته في العراق في الكلام الذي ذكره عنه أبو عمر ابن عبد البر قال : أهل البدع والأهواء عند مالك وأصحابه الذين ترد شهادتهم هم أهل الكلام قال : فكل متكلم فهو عندهم من أهل الأهواء والبدع عند مالك وأصحابه وكل متكلم فهو عندهم من أهل الأهواء أشعريا كان أو غير أشعري)) اهـ.  
وابن القيم لم يشذ عن شيخه في شيء كما في الصواعق المرسله ٤ / ١٢٧ فلا حاجة لتكرير النقل.  
فاذا تقرر هذا، وتبين أن كتاب ابن عبد البر المترجم بـ(جامع بيان العلم وفضله) هو المصدر لأغلب النقلة لهذا النص عن ابن خويزمنداد، فهل يعني هذا أن ابن عبد البر متفرد بالنقل عنه والوقوف على كتابه، وأننا لا نجد سبيلا إليه إلا ويكون منقولا عن ابن عبد البر!! نعم هذا ما يفهم من عبارة ابن تيمية المتقدمة حيث قطع بأن أبا حامد الغزالي إنما نقله عن ابن عبد البر ولم يضع أي احتمال لكون الغزالي نقله عن غيره أو أنه اطلع على كتاب ابن خويزمنداد نفسه فنقل منه! لكن في هذا نظر كما قلنا، فأبي بعد في أن يقف غير ابن عبد البر على كتاب ابن خويزمنداد فينقل منه؟؟ وإذا كان ابن خويزمنداد قد قال ذلك في كتاب من كتبه فلا ينبغي الجزم بأن كل ناقل إنما نقله عن ابن عبد البر، فقد رأيت الإمام العلامة الفقيه ابن حجر الهيتمي الشافعي نقل كلام ابن خويزمنداد في الفتاوى الحديثية بصورة أتم مما عند ابن عبد البر، وسيأتي التفصيل.

المطلب الثاني : في مدى صحة نسبته لابن خويزمنداد في مصدره

بعد الفحص والتتقيب لم أجد النص المذكور منقولا من كلام ابن خويزمنداد مباشرة إلا في موضعين اثنين، أحدهما كتاب (جامع بيان العلم وفضله) لابن عبد البر كما مر، وثانيهما كتاب (الفتاوى الحديثية) للفقيه الهيتمي، ولا أزعج أن النص لا يوجد في غيرهما، ولكن هذا ما تيسر لنا الآن، فننظر في هذين النصين ونتكلم على كل واحد منهما على حدة، ونبدأ بنقل ابن عبد البر:

النص عند ابن عبد البر:

هو في موضع واحد فقط من كتاب جامع بيان العلم وفضله، وهذه صورة الموضع المقصود [ طبعة دار الكتب الإسلامية - القاهرة - ط٢ - ١٤٠٢ هـ - ص٤١٦ - ٤١٧ ] :

(( أخبرنا إسماعيل بن عبد الرحمن قال حدثنا إبراهيم بن بكر قال سمعت أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إسحق بن خويزمنداد المصري المالكي قال في كتاب الإجازات من كتابه في الخلاف قال مالك : لا تجوز الإجازات في شيء من كتب الأهواء والبدع والتنجم - وذكر كتبنا - ثم قال : وكتب أهل الأهواء والبدع عند أصحابنا هي كتب أصحاب الكلام من المعتزلة وغيرهم، وتفسخ الإجازة في ذلك، قال : وكذلك كتب القضاء بالنجوم وعزائم الجن وما أشبه ذلك.  
وقال في كتاب الشهادات في تأويل قول مالك : (لا تجوز شهادة أهل البدع وأهل الأهواء) قال : أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبدا، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتيب منها)) اهـ.

سنغض الطرف ابتداء عن تحريف كلمة (البصري) إلى (المصري) في هذه الطبعة، فإن التركيز على ذلك ليس بذى قيمة، ولنلج فيما يجدي فنقول :  
إن ابن عبد البر يسوق النص هنا بإسناده، هذا الإسناد الذي عناه الدكتور سفر الحوالي - وغيره - حينما قال في (منهج الأشاعرة)

ص ٧٠ :

(( روى حافظ المغرب وعلمها الفذ ابن عبد البر بسنده عن فقيه المالكية .. )) اهـ.

ها نحن ذا أمام السند الذي يعنيه الدكتور سفر الحوالي، ومن المعلوم أن كلمة (بسند)!! في تعبير الدكتور سفر لها مدلولها وأهميتها، فهو يلمح إلى أن ابن عبد البر لم يلق الكلام على عوانه، بل رواه مسندا شأن أهل الحديث في الحرص على الاتصال، وقد قال السلف : (الإسناد من الدين، ولولا لقال من شاء ما شاء) فمن غير الإنصاف أن نتجاوز هذا الإسناد الذي ساقه ابن عبد البر وجعله سلما للنقل عن ابن خويزمناد دون أن نعطيه ما يليق به من الاهتمام على رسم أهل الحديث الذين يعتزي إليهم ابن عبد البر نفسه، ولا من العدل أن نهمل لفظة الدكتور سفر الحديثية الأثرية حينما قال : (بسند)!! إذن فلنلق نظرة على هذا الإسناد ..

يقول ابن عبد البر : (( أخبرنا إسماعيل بن عبد الرحمن قال حدثنا إبراهيم بن بكر قال سمعت .. )) اهـ.  
يتوسط بين ابن عبد البر وابن خويزمناد في هذا الإسناد رجلان :

أما الأول الذي هو شيخ ابن عبد البر فقد عرفناه فهو :

إسماعيل بن عبد الرحمن بن علي بن محمد بن أحمد القرشي الزمعي ثم العامري المصري المتوفى سنة ٤٢١ هـ، قال عنه الحميدي في جذوة المقتبس ٢٥١/١ وابن بشكوال في الصلة ١٧٦/١ والضبي في بغية الملتمس ٢٨٢/١ : (ثقة مأمون).

وأما الثاني الذي هو شيخ إسماعيل القرشي العامري وتلميذ ابن خويزمناد في الإسناد فهو :

إبراهيم بن بكر بن عمران بن عبدالعزيز اللخمي الألبيري، يكنى أبا إسحق، ويعرف أيضا بإبراهيم بن بكر الموصلية، رحل إلى المشرق ودخل العراق فلقى الأبهري وسمع منه، وسمع بالموصل من أبي الفتح الأزدي ورجع الأندلس وحدث بأشباه، وتوفي بإشبيلية سنة ٣٨٥ هـ، ذكره ابن الفرزي في تاريخ علماء الأندلس ٥٤/١، والحميدي في جذوة المقتبس ٢٣٧/١، وابن بشكوال في الصلة ١٦٨/١، ولم يذكر في جرحا ولا تعديلا، وذكره الضبي في بغية الملتمس ٢٦٣/١ ففرق بين إبراهيم بن بكر الموصلية وإبراهيم بن بكر بن عمران الألبيري!! ولم يذكر في أحدهما جرحا ولا تعديلا، ولم أقف على ذكر له في غير هذه المصادر.

فهذا الإسناد لا يمكننا الحكم بصحته ما لم نسمع كلمة توثيق لإبراهيم بن بكر، فهو الآن في حد مجهول الحال عندنا، ولا يصح أهل الحديث خيرا يرويه مجهول الحال لا سيما في المتأخرين، وما ذكره الضبي من التفريق مقلق بعض الشيء، ويزيدنا قلقا أن وفاة إبراهيم بن بكر متقدمة على وفاة ابن خويزمناد حسبما تقيده التواريخ! فمن كان لديه خبر عن وثاقة هذا الرجل فليفدنا به، وليس لنا الآن الحكم بصحة هذا النقل عن ابن خويزمناد أصلا مادام في الإسناد إليه من جهل - نحن - حاله.  
فالنتيجة - عندنا - الآن من هذا المطلب أن الإسناد لا يصح فلا يثبت النص المذكور عن ابن خويزمناد - عندنا - حتى نقف على توثيق ذي الحال المجهول، لاسيما - ونحن - أمام نقل يتفرد به هذا المجهول، ولا نجد له أثرا عند غيره بسند آخر يعضده - اللهم إلا ما سيأتي عن ابن الهيثمي - بل ولم نقف على كتاب معروف لابن خويزمناد يصرح فيه بذلك، فما حيلتنا إذن غير ترك التعويل على هذا النص ..

النص عند ابن حجر الهيثمي:

وقفنا على نص كلام ابن خويزمناد بصورة أخرى غير التي عند ابن عبد البر وبشكل أوفى وأكثر دقة، وجدناه عند الفقيه ابن حجر الهيثمي الشافعي في كتابه (الفتاوى الحديثية) ص ٢٧٥ - طبعة إحياء التراث - بيروت - قال :  
( (وأما تعليم الحجج الكلامية والقيام بها للرد على المخالفين فهو فرض كفاية، اللهم إلا إن وقعت حادثة وتوقف دفع المخالف فيها على تعلم ما يتعلق بها من علم الكلام أو آلاته فيجب علينا على من تأهل لذلك تعلمه للرد على المخالفين.  
فإن قلت : كيف هذا مع قول ابن خويزمناد : كتب الكلام لا يجوز تملكها، والإجارة فيها باطلة، ومتى وجدت وجب إتلافها بالغسل والحرق ومثله كتب الأغاني واللهو وشعر السخفاء من المتأخرين وكتب الفلاسفة والعزائم، - وعدى ذلك إلى كتب اللغة والنحو وبين ما فيهما من خوض أهلها فيهما في أمور لا يعلمون صحتها - ثم قال : وكتب الكلام فيها الضلالة والبدع والإلحاد في أسماء الله وصفاته، والكفر بتأويل القرآن وتحريفه عن موضعه، فلا يجوز بقاؤها في ديار المسلمين لئلا تضل الجاهل، فإن قيل : بعضها حق لأنكم لا بد لاحقون ببعض أقسام أهل الكلام؟ فجوابه: إن هذا خطأ علينا لأننا لا ننسب إلى الكلام ولا أهله ونحن منهم براء، ولو تشاغل سني بالكلام لكان مبتدعا، والسني هو المنتسب للسلف الصالح، وكلهم زجروا عن الخوض في

مثل هذا، والخائضون في هذا من سائر أهل البدع، ويكفي في الخروج إلى البدعة مسألة واحدة فكيف وقد أوقروا ظهورهم وأجمعوا نفوسهم. انتهى كلام ابن خويزمنداد. ((اهـ.

هذا ما نقله العلامة ابن حجر الهيتمي في فتاواه، ويظهر منه أن النص منقول عن مصدر آخر غير ابن عبدالبر، فهذا هنا سياقهم أتم وأدق كما ترى، والاختلاف بينه وبين النص الذي عند ابن عبدالبر واضح، لكنه لم يسبق له سنداً، ولم يذكر لنا الهيتمي المرجع الذي نقل منه، ومهما يكن فلن يكون المصدر المنقول عنه هو كتاب ابن عبدالبر لما لا يخفى. لكن الهيتمي قال بعد أن ذكر كلام ابن خويزمنداد ما نصه:  
( ( قلت : قال ابن برزقة شارح (إرشاد) إمام الحرمين : هذا النقل عنه باطل، فإن صح عنه فالحق حجة عليه .. ) ) اهـ.

(ابن برزقة) تحرفت عن (ابن بزيرة) ! وقد ذكره الهيتمي على الصحيح في موضع آخر من فتاواه صفحة ١٥٢ فقال : ((ابن بزيرة)) اهـ.

و(بزيرة) على وزن (سفينه) كما في إيضاح المكنون ٥٨١/١، وهو :  
أبو محمد عبدالعزيز بن إبراهيم القرشي التميمي التونسي عرف بابن بزيرة، الإمام العلامة المحصل المحقق الفهامة الحافظ للفقه والحديث والشعر والأدب الحبر الصوفي من أعيان أئمة المذهب المالكي المعتمدين، وكان في درجة الاجتهاد، له تأليف منها (الإسعاد في شرح الإرشاد) .. توفي سنة ٦٦٢ أو ٦٦٣ هـ. انظر شجرة النور الزكية ص ١٩٠ وإيضاح المكنون ٥٨١/١.

فيجوز أن يكون الهيتمي نقل نص ابن خويزمنداد من هذا الشارح ويكون ابن بزيرة هو المطلع على كلام ابن خويزمنداد، ومهما يكن فهذا العلامة المالكي أيضاً قد أحاط علماً بما قاله ابن خويزمنداد كما يظهر من كلامه في شرح الإرشاد الذي نقل منه الهيتمي، ويحكم ابن بزيرة - وهو أحد أئمة المالكية المعتمدين - على هذا المنقول عن ابن خويزمنداد بالبطلان عنه، وأنه على فرض صحته فلا عبرة به ولا حجة فيه.  
نعم قد يقول قائل : لم لا يكون اشتهاً ابن خويزمنداد بمجانبة الكلام وأهله مؤيداً لصحة هذا النقل؟!  
فالجواب : نعم هذا صحيح، لكن من أين لنا أن هذه الشهرة ليست مبنية على هذا النص المنقول عنه بعينه؟! فقد يجوز أن يكون هذا النص هو منشأ ذلك التصور عنه، ومن أين لنا أن ذلك التصور عنه لا يكون مبنياً على أشياء أخرى لم تبلغنا غير هذا النص؟.

[ الخلاصة ]:

يتبين لنا من خلال هذا المبحث أن هذا النص المنقول عن ابن خويزمنداد عند ابن عبدالبر في كتاب جامع بيان العلم وفضله في إسناده رجل لم نقف على تعديل أو تجريح له، وليس هذا رسم الصحيح الذي يعول عليه وتقوم به الحجة، وأن النص المنقول عن الهيتمي في فتاواه لا سند له أيضاً، وهو مختلف لفظاً عما عند ابن عبدالبر، وهذا موجب للاضطراب المنتج للضعف، فلا يصلح هذا النقل مستمسكاً في شيء لو كان صحيحاً لما مر من حال ابن خويزمنداد، فكيف وهو الآن - عندنا - خارج عن دائرة الصحة!!.

المبحث الثالث ( معنى كلام ابن خويزمنداد )

تكلمنا عن ابن خويزمنداد فعرّفناك به، وظهر أنه ليس بحد الحجة، وتكلمنا على النص المنقول عنه من جهة مصدره وسنده، والآن لنا أن نتساءل عن أمر لا يقل أهمية عما مضى فنقول : ما هو مغزى ابن خويزمنداد حقيقة؟؟ أو ما هو المعنى الدقيق الذي يحملُه نص ابن خويزمنداد؟؟!! لا بد لنا من نظرة على مقصود الرجل حتى لا نظلمه فنحمل كلامه فوق ما يحتمل ونقول ما لم يقل، فهذه وقفة إنصاف من خلال فحص وتحليل كلام ابن خويزمنداد :

يقول النص المنقول عنه عند ابن عبدالبر ص ٤١٦ - وقد ذكرناه سابقاً - :

(( لا تجوز شهادة أهل البدع و أهل الأهواء، قال : أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام، فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعرياً كان أو غير أشعري، ولا تقبل له شهادة في الإسلام أبداً، ويهجر ويؤدب على بدعته، فإن تمادى عليها استتیب منها )) اهـ.

هذا هو النص، وقد جاء من المبتدعة من بنى عليه أن الأشاعرة من أهل الأهواء عند المالكية !!! وسنرى.  
فلاحظ في هذا النص أن ابن خويزمناد مصمم على اعتبار كل من يخوض في الكلام مبتدعا ومن أهل الأهواء، سواء كان أشعريا أم لا !! وحتى يتضح المغزى منه لا بد أن يدرك القارئ أن تاريخ هذا الكلام كان قبل سنة ٣٩٠ هـ التي هي سنة وفاة ابن خويزمناد التقريبية، بل ينبغي أن يكون قبل سنة ٣٨٥ هـ التي هي سنة وفاة إبراهيم بن بكر الراوي عن ابن خويزمناد، وإذا كان ابن خويزمناد يتحدث في ذلك التاريخ، فمن الضروري جدا أن ندرك بأن شهرة الإمام أبي الحسن الأشعري كمنافح عن أهل السنة كانت قد أخذت طريقها في الانتشار بين أهل السنة عموما، وقد عاصر ابن خويزمناد كبار تلاميذ الأشعري وتلاميذ تلاميذه الذين من أشهرهم منافسه الكبير - وقرينه في التلمذة على أبي بكر الأبهري شيخ المالكية في العراق - الإمام القاضي أبو بكر الباقلائي الذي لمع نجمه وخرج من ديوان الخلافة تلقبيه بشيخ السنة ولسان الأمة، وكان ينافس في العراق فيجذب الأضواء، وتضرب إليه أكباد الإبل، ويؤم مدرسته طلاب العلم من كل صوب، خصوصا المالكية بالمغرب والمشرق، وصار ابن خويزمناد يرى بأم عينيه كيف يترقى أصحاب الأشعري وينالون كل احترام وتقدير بين أهل السنة والجماعة، على اعتبارهم الذائدين والمنافحين عن عقيدة أهل السنة المتصددين لهجمات أهل البدع من القدرية والمعتزلة وأصناف الشيعة ونحوهم .

وكان السلاح المضاعف الذي تميز به أصحاب الأشعري فيهرؤوا العالم، والذي اندحرت الفرق المخالفة أمامه، هو سلاح الحجة العقلية المعبر عنه بعلم الكلام، لقد استطاع أصحاب الأشعري أن يلقنوا المعتزلة دروسا سجلها التاريخ، باستعمال سلاحهم الفتاك، وأثر ذلك الانتصار على عامة أهل السنة، فاتخذوا الأشعري وأصحابه أئمة يقتدون بهم، ويلوذون بعلمهم وفهمهم في مهامه العقيدة، فلا يبعد مع هذا المجد المساعد للأشعرية أن يكون داء المنافسة قد سرى لابن خويزمناد، مما جراه على أصحابه فقصد إلى ما يسقطهم به ويصرف وجوه الناس عنهم، فتوهم أنهم يخوضون في الكلام قد صاروا من أهل الأهواء !!  
وقد يجوز أيضا أن يكون ابن خويزمناد قد خاف عاقبة الخوض مع أهل البدع ألا تكون حميدة فتقلب هزيمة على أهل السنة - ربما لضعف ثقته بأصحابه - فرأى حسم الباب، فأفتى ببذعية الخوض في الكلام !!  
وهناك احتمال ثالث : وهو أن يكون ابن خويزمناد بلغ مبلغا من التعصب بحيث صار يرى كثيرا من العلوم الإسلامية النافعة المفيدة التي نضجت في عصره بدعة وضلالة، ويؤيد هذا ما ورد في كلامه المنقول عند الهيثمي من أن ابن خويزمناد لم يقف عند حد النهي عن كتب الكلام بل :

((عدى ذلك إلى كتب اللغة والنحو وبين ما فيهما من خوض أهلها فيهما في أمور لا يعلمون صحتها)) اهـ.  
وكذلك شمل الأمر عنده كتب الشعر والأدب !! بل إن من الغريب جدا الذي يؤيد هذا أيضا ما وقفت عليه في كلام لابن تيمية في مجموع الفتاوى قال ٣٢٧/٢٠ :

((وما أحسن ما قال ابن خويزمناد في مسألة بيع كتب الرأي والاجارة عليها: لا فرق عندنا بين رأي صاحبنا مالك وغيره في هذا الحكم)) اهـ .

وكتب الرأي هذه التي يعينها ابن تيمية هي كتب الفقه !! قال أبو العباس بن تيمية في الفتاوى الكبرى ٢٣٠/٢ :  
(( فإن المتقدمين كانوا يجمعون في الباب بين المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحاب والتابعين ولم تكن وضعت كتب الرأي التي تسمى كتب الفقه)) اهـ.

فلا أدري على أي وجه يستحسن مثل هذا الهديان من ابن خويزمناد رحمه الله، فإذا كان هذا كلامه ورأيه فأني عجب إذن ممن يرى كتب الفقه والنحو واللغة والأدب والشعر كتب بدع وضلالة أن يضيف إليها كتب الكلام !!!  
ومهما تكن نية ابن خويزمناد فإن الرياح لم تجر حسب مشتاهه، فقد تعلقت الناس بالأشعرية حتى صارت الأشعرية رمزا لأهل السنة والجماعة، حتى إنك لتجد الحنابلة يعترضون بهم، قال الحافظ ابن عساكر في التبيين ١٦٣ ما نصه :  
((ولم تزل الحنابلة ببغداد في قديم الدهر على ممر الأوقات تعترض بالأشعرية على أصحاب البدع لأنهم المتكلمون من أهل الإثبات فمن تكلم منهم في الرد على مبتدع فيلسان الأشعرية يتكلم ومن حقق منهم في الأصول في مسألة فمنهم يتعلم)) اهـ.

وروى الحافظ ابن عساكر بسنده في التبيين ٣٩٠ عن الشريف أبي علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي الحنبلي أنه قال :  
(( حضرت دار شيخنا أبي الحسن عيد العزيز بن الحارث التميمي سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه حضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكيين وأبو القسم الداركي شيخ الشافعيين وأبو الحسن طاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث وأبو الحسين بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلمين وصاحبه أبو بكر بن الباقلائي في دار شيخنا أبي الحسن التميمي شيخ الحنابلة قال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق من يفتي في حادثة يشبه واحدا منهم )) اهـ..

فأين ابن خويزمناد من هذا المجلس العلمي المجيد !!!

بل وأئمة أصحاب الحديث يجلونهم ويجلونهم، وليس أبلغ في الدلالة على ذلك مما صح عن الحافظ أبي ذر الهروي راوي صحيح البخاري :

ففي تذكرة الحفاظ ٣/١١٠٥ وسير أعلام النبلاء ١٧/٥٥٨ :

(( قال أبو الوليد الباجي في كتاب (اختصار فرق الفقهاء) من تأليفه، في ذكر القاضي ابن الباقلاني: لقد أخبرني الشيخ أبو ذر وكان يميل إلى مذهبه، فسألته: من أين لك هذا؟ قال: إني كنت ماشيا ببغداد مع الحافظ الدارقطني، فلقينا أبا بكر بن الطيب فالتزمه الشيخ أبو الحسن، وقبل وجهه وعينه، فلما فارقتاه قلت له: من هذا الذي صنعت به ما لم أعتقد أنك تصنعه وأنت إمام وقتك؟؟!! فقال هذا إمام المسلمين، والذاب عن الدين، هذا القاضي أبو بكر محمد بن الطيب. قال أبو ذر: فمن ذلك الوقت تكررت إليه مع أبي، كل بلد دخلته من بلاد خراسان وغيرها لا يشار فيها إلى أحد من أهل السنة إلا من كان على مذهبه وطريقه (( اهـ .

فدونك إمام أهل الحديث في عصره أبا الحسن الدارقطني المتوفى سنة ٣٨٥ هـ فانظر إلى صنيعه بآبن الباقلاني - وهو يومئذ شاب - نجم الأشاعرة في وقته، وأحد تلاميذ تلاميذ مدرسة أبي الحسن الأشعري، وتمعن في تلقيب الدارقطني إياه بـ(إمام المسلمين)!! فما عسى ابن خويزمنداد صانع مع هذا الجاه الذي ناله أصحاب الباقلاني في بغداد!!؟.

ومهما تكن دوافع ابن خويزمنداد فإن أمرا بالغ الأهمية يجب أن نضعه في عين الاعتبار، وهو أن عبارة ابن خويزمنداد التي تقول :

(( فكل متكلم فهو من أهل الأهواء والبدع أشعريا كان أو غير أشعري )) اهـ.

هذه العبارة وإن كانت صريحة في اعتبار المتكلم مبتدعا لكنها ليست صريحة في اعتبار كل أشعري مبتدعا، فليس بالضرورة أن يكون كل أشعري متكلمًا، فعبارة ابن خويزمنداد تتعرض لمن خاض في الكلام فحسب، ولا تتجاوز ذلك. وهذا الذي فهمناه من كلام ابن خويزمنداد هو ما فهمه الإمام أبو حامد الغزالي من كلامه أيضا حينما قال في الإحياء كما في (تحاف السادة المتقين) ٢/٧٦ :

(( فقال بعض أصحابه في تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا )) اهـ. الضمير في كلمة (أصحابه) يرجع إلى الإمام مالك، والمقصود هنا ببعض الأصحاب عند الإمام الغزالي هو ابن خويزمنداد كما جزم به ابن تيمية .

بل إن قول ابن خويزمنداد : (أشعريا كان أو غير أشعري) يدفعنا إلى التساؤل : لم خص ابن خويزمنداد الأشعرية بالذكر من بين سائر المتكلمين في عصره، لا سيما والعراق في عصره كانت مليئة بالمعتزلة وأهل البدع !!. وهنا أجدني أقول وبكل ثقة : إن هذا الكلام من ابن خويزمنداد أحد الأدلة الصارخة على أن الأشاعرة في عهده هم الآخذون بزمام أهل السنة والذائدون عن حياض الدين حتى استقر في نفوس الكافة أنهم أعيان أهل السنة ونصار الجماعة، فاحتاج ابن خويزمنداد إلى التنبيه على أن هؤلاء الأعيان الذين هم من أهل السنة لا يستثنون من النهي عن الخوض في الكلام، فإن كونهم أنصار السنة والجماعة لا يشفع لهم ويجيز لهم ما يحرم على غيرهم، بل الخوض في الكلام مع المبتدعة بدعة، والخائض مبتدع وإن كان رأسا في تحقيق التوحيد ونصرة العقيدة كالأشاعرة، فلن يستثنى من هذا الحكم أحد، فالرجل له رأي خاص بتحريم الاشتغال بعلم الكلام وأن من اشتغل به فهو آثم مبتدع حتى ولو كان من الأشاعرة!!!!!! هذا قصده، وإلا فلم خص الأشاعرة بالذات؟؟! فهو كالصريح إذن في أن الأشاعرة لا يكونون عنده من أهل الأهواء إلا إذا خاضوا في الكلام، وهذا عام عنده يشمل الأشاعرة وغيرهم، وإنما خص الأشاعرة بالذكر حتى لا يتوهم متوهم عليه أنه يستثنى لهم لما ظهروا به من نصره الدين.

ومما يعين هذا المعنى أنه لم يرد أي ذكر للأشاعرة في النص المنقول عن ابن خويزمنداد لدى ابن حجر الهيتمي، ولكننا نجد في مقابلة ذكر الأشعرية شيئا آخر مساويا حينما نقل عنه أنه قال:

((ولو تشاغل سني بالكلام لكان مبتدعا)) اهـ.

فهذا النص نجده لا يذكر الأشعرية بل يذكر بدلا منهم السنية، مما يعين ما قلناه من أن مراد ابن خويزمنداد أن السني الأشعري إذا تشاغل بالكلام كان مبتدعا، وليس بمبتدع إذا لم يتشاغل به.

والخلاصة العادلة :

أن الأشاعرة الذين هم أهل السنة - عند ابن خويزمناد - لا يستثنون من هذا الباب ليقال : يجوز لهم ما لا يجوز لغيرهم . هذا رأي ابن خويزمناد بوضوح، وليس لأحد أن يحمل كلامه فوق هذا، فمن ادعى عليه فوق ذلك فعليه بالدليل، ومع هذا كله يبقى رأي ابن خويزمناد الذي لم يلتفت إليه أحد من أهل المذهب ولا غيرهم رأياً باطلاً كما قال الإمام ابن بزيمة المالكي، ورحم الله العلامة ابن حجر الهيثمي إذ يقول في فتاواه الحديثية ص ٢٧٥ :

(( وكيف يُرجع لابن خويزمناد ويُترك أقاويل أفاضل الأمة و علماء الملة من الصحابة ومن بعدهم كالأشعري والباهلي والقلانسي والمحاسبي وابن فورك والإسفرائيني والباقلاني وغيرهم من أهل السنة !! .. )) اهـ.  
فتبين أن من بنى على قول ابن خويزمناد تبديع الأشاعرة عموماً إنما بناه على شفا جرف هار فانهار به.  
لكن يبقى ههنا سؤال مطروح : هل هذا الحكم ينسحب عند ابن خويزمناد على حالات الضرورة أيضاً حيث يكون أهل السنة في أمس الحاجة لمن يدفع عنهم من يصول عليهم ويفسد عقائدهم؟؟ إن كلام ابن خويزمناد ساكت عن هذا، وإذا كان كذلك فلعلنا نستشف الجواب من خلال المبحث التالي.

#### المبحث الرابع ( موقف ابن عبدالبر من كلام ابن خويزمناد )

من المعلوم أن ابن عبدالبر أشهر من نقل نص ابن خويزمناد، وذلك في كتابه (جامع بيان العلم وفضله)، وهو من كبار علماء المغرب وفقهاء المالكية أيضاً، ويبنى المخالفون على هذا أن ابن عبدالبر موافق لابن خويزمناد فيما ذهب إليه! ونحن قد بينا ما يمكن أن يحتمله كلام ابن خويزمناد وما لا يحتمله، وقد أوضحنا أن غاية ما يدل عليه كلامه هو بدعية الكلام عموماً، والنهي عن الخوض فيه حتى ولو كان الخائض فيه أجل الناس وأصفاهم عقيدة!! وكنا نساءلنا عما إذا كان هذا يتناول حتى حالات الضرورة عند ابن خويزمناد أيضاً؟؟ أم أن ابن خويزمناد إنما يتحدث عن حالات اختفاء الشبهات، واستقرار أهل السنة، وأمنهم من سطوة أهل البدع عليهم، فحينئذ يكون من يشيع فيهم الكلام مبتدعاً، لا حالة الضرورة؟؟  
وبمعنى أقرب : هل يرى ابن خويزمناد تبديع من تكلم من الأئمة غير ملتفت إلى اضطرابهم آنذاك، وإلى حاجة أهل السنة الملحة إلى من يرد عنهم شبهات أهل الباطل التي أهدت بالعلماء ذلك الزمان فضلاً عن العوام؟؟!! .  
لعلنا بعون الله تعالى نجد الإجابة على هذا هنا حينما نسلط الضوء على كلام ابن عبدالبر وموقفه فقول : قال ابن عبدالبر في الجامع ص ٤١٥ :

(( قال أبو عمر : قد بين مالك رحمه الله أن الكلام فيما تحته عمل هو المباح عنده وعند أهل بلده يعني العلماء منهم رضي الله عنهم، وأخبر أن الكلام في الدين نحو القول في صفات الله وأسمائه وضرب مثلاً فقال " نحو قول جهم والقدر " والذي قاله مالك رحمه الله عليه قاله جماعة الفقهاء والعلماء قديماً وحديثاً من أهل الحديث والفتوى، وإنما خالف ذلك أهل البدع المعتزلة وسائر الفرق، وأما الجماعة فعلى ما قال مالك رحمه الله، إلا أن يضطر أحد إلى الكلام فلا يسعه السكوت إذا طمع برد الباطل وصرف صاحبه عن مذهبه، أو خشى ضلال عامة أو نحو هذا )) اهـ.

فالناظر في كلام ابن عبدالبر هذا يلاحظ وبجلاء أنه يفرق بين وقت لا حاجة للكلام فيه، وبين آخر يُضطر فيه إلى الكلام فيصير فرض كفاية أو فرض عين، وذلك إذا طمع المتكلم برد الباطل أو هداية الزانغ، أو خشى ضلال عامة، ونحو هذا مما فيه استجلاب مصلحة أو درء مفسدة، مما يستوجب وجود متكلم يذب عن أهل السنة.

فهذا هو رأي ابن عبدالبر يسجله في كتابه (جامع بيان العلم وفضله) وهو نفس الكتاب الذي استشهد فيه بكلام ابن خويزمناد السالف، وعليه فلا يكون ابن عبدالبر حينما استشهد بكلام ابن خويزمناد يقصد التعميم به والإطلاق، وإذا كان ذلك كذلك فكيف استشهد ابن عبدالبر بكلام ابن خويزمناد وعلى أي وجه؟؟  
جوابنا : أن ابن عبدالبر مادام قد صرح بالاحتياج إلى الكلام لدرء مفسدة أو جلب مصلحة إذن فموقفه من كلام ابن خويزمناد لا يخرج عن أحد احتمالين:

الأول : أن نتصور اتحاد الفكرة والرأي بين ابن عبدالبر وابن خويزمناد، وأن كلام كل منهما إنما يخرج من مشكاة واحدة، فما أهمل ابن خويزمناد ذكره من قيد واستثناء من حالات الحاجة إلى الكلام نبه عليه ابن عبدالبر، وعلى هذا الاحتمال فلنا أن نفهم كلام ابن خويزمناد في ضوء كلام ابن عبدالبر، ومن ثم لا يكون في كلام ابن خويزمناد حجة لمن حرم ومنع الكلام على وجه الإطلاق والتعميم، بل ولا يكون ابن خويزمناد شاذاً في قوله هذا أصلاً لوجهته بحصول قيد معتبر فيه.

الثاني : أن نتصور اختلاف الرأي بينهما في محل الإطلاق والتقييد، وأن مراد ابن خويزمنداد حقيقة هو الإطلاق والتعميم، وهو ما لا يراه ابن عبد البر المصرح بالقيود والاستثناءات السالفة، وعلى هذا القول يكون ابن خويزمنداد قد شذ، وإنما نقل ابن عبد البر كلامه ليأخذ منه موضع الاتفاق بينهما فقط، وهو النهي عن الكلام في حالات الاستغناء عنه، وهنا يبقى ابن عبد البر أيضا موافقا لكلام كثير من العلماء، وهم كلهم صف واحد يقابلهم ابن خويزمنداد في زاوية التفرد والشذوذ.

والخلاصة من هذا أن ابن عبد البر على كلا الاحتمالين السالفين لا يقول بتحريم الخوض في علم الكلام متى مست إليه الحاجة لجلب مصلحة أو درء مفسدة، فلا حجة للمخالفين في استشهاد ابن عبد البر بكلام ابن خويزمنداد، لأنه كما سلف لا يريد الإطلاق الذي يرمون إليه، بل حينما نفهم كلام ابن خويزمنداد على ضوء تفصيل ابن عبد البر، فإن المخالفين ساعتها يقفون معزولين لا يسندهم قول أحد، لا ابن خويزمنداد ولا غيره.

براءة ابن عبد البر من الحشو:

ربما يستروح بعض أهل الحشو إلى بعض ما قاله ابن عبد البر في شرح حديث النزول من كتاب التمهيد، وربما يعترضون بكلام من نقده من أئمة التنزيه كالإمام ابن الجوزي الذي قسى عليه في صيد الخاطر إذ قال :

(( ولقد عجبت لرجل أندلسي يقال له ابن عبد البر صنف كتاب التمهيد فذكر فيه حديث النزول إلى السماء الدنيا فقال : هذا يدل على أن الله تعالى على العرش، لأنه لولا ذلك لما كان لقوله ينزل معنى. وهذا كلام جاهل بمعرفة الله عز وجل لأن هذا استسلف من حسه ما يعرفه من نزول الأجسام، ففاس صفة الحق عليه، فأين هؤلاء واتباع الأثر؟! ولقد تكلموا بأفبح ما يتكلم به المتأولون ثم عابوا المتكلمين..)) اهـ.

قلت : وليس هذا الكلام بشيء عند التحقيق، لأن ابن عبد البر لا يعني النزول من جهة الحس فإن كلامه الموهوم لذلك مدفوع بكلام له آخر أوضح، فأليك نبذا من كلامه توضح لك منهج ابن عبد البر على وجه الإجمال لا التفصيل، ولا يمنع ما تراه هنا من كلامه أن يكون له بعض ما ينتقد عليه، فإن أحدا من أهل العلم لم يسلم من كلام متكلم ونقد ناقده.

ما يدفع تهمة الحشو عن ابن عبد البر من بعض نصوص كلامه :

قال رحمه الله في كتابه (الاستنكار) ٢١٣/٥ : باب ما جاء في صلاة الليل، عند شرحه لحديث النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله لا يمل حتى تملوا قال :

(( أي من مل فقطع عمله ، انقطع عنه الجزاء ، ومعلوم أن الله عز وجل لا يمل سواء مل الناس أو لم يملوا ، ولا يدخله ملال في شيء من الأشياء ، جل عن ذلك وتعالى علوا كبيرا ، وإنما جاء لفظ هذا الحديث على المعروف من لغة العرب ، فإنهم إذا وضعوا لفظا بزاء لفظ جوابا له أو جزاء ذكره يمتثل لفظه وإن كان مخالفا له في معناه )) اهـ .  
وتأويله هنا حسن موافق لكلام الجمهور، مخالف لكلام أهل الحشو.

وقال رحمه الله في كتابه (التمهيد) ١٤٤/٧ ردا على من فسر حديث النزول بنزول الذات :  
(( ليس هذا- يعني قول من قال ينزل بذاته - بشيء عند أهل الفهم من أهل السنة لأن هذا كيفية وهم يفزعون منها )) اهـ .  
ونفيه لتقييد النزول بالذات موافق أيضا لكلام الجمهور مباين لكلام أهل الحشو.

وقال في كتابه (الاستنكار) ٥٣٠/٢ ما يلي :

(( وقد قالت فرقة منتسبة إلى السنة : إنه ينزل بذاته ! ، وهذا قول مهجور، لأنه تعالى ذكره ليس بمحل للحركات ولا فيه شيء من علامات المخلوقات )) اهـ .  
وهذا منه تنزيه لله تعالى عن حلول الحوادث بالذات وموافقة لأصل عظيم من أصول أهل السنة ومخالفة لأصول الحشو.

وذكر الرواية في (التمهيد) ١٤٣/٧ عن مالك (بأنه ينزل أمره ورحمته) فلم يستبعدها لا من حيث السند ولا من حيث المتن ، بل قدمها أولاً بقوله :

(( وقد قال قوم من أهل الأثر أيضا أنه ينزل أمره وتنزل رحمته )) اهـ .  
ثم ذكر إسنادها إلى مالك .. وعقب عليها بقوله :

(( وقد يحتمل أن يكون كما قال مالك رحمه الله على معنى أنه تنزل رحمته وقضاؤه بالعمو والاستجابة، وذلك من أمره أي أكثر ما يكون في ذلك الوقت ، والله أعلم...)) اهـ.  
وهذا صريح في تجويزه هذا التأويل .

وقال في (التمهيد) أيضا ١٣٧/٧ :

(( وليس مجيئه حركة ولا زوالاً ولا انتقالاً، لأن ذلك إنما يكون إذا كان الجاني جسماً أو جوهرأ، فلما ثبت أنه ليس بجسم ولا جوهر، لم يجب أن يكون مجيئه حركة ولا نقلة، ولو اعتبرت ذلك بقولهم : جاءت فلاناً قيامته، وجاءه الموت، وجاءه المرض، وشبه ذلك، مما هو موجود نازل به، ولا مجيء، لبان لك، وبالله العصمة والتوفيق )) اهـ.

وهنا يعبر ابن عبدالبر باصطلاحات المتكلمين من ذكر الجوهر والعرض والجسم ونفيها عن الله، كما نفى الحركة والنقلة، وهذا منه موافقة للجمهور مباينة لكلام أهل الحشو.

وقال رحمه الله في (الاستنكار) ٥٩٦/٨ :

(( وروى معمر عن أيوب عن القاسم بن محمد عن أبي هريرة قال : إن الله يقبل الصدقة إذا كانت من طيب ويأخذها بيمينه .. وأما قوله : يأخذها بيمينه، فهذا مجاز وحسن عبارة عن قبول الله تعالى للصدقة، ومعنى أخذ الله لها، قبوله تبارك وتعالى، لا يشبهه شيء، وليس كمثله شيء، وهو السميع العليم )) اهـ .

وحيث اتضح موقف ابن عبدالبر ومنهجه فقد تبين أنه لا مستند للحشوية فيما توهموه على ابن عبدالبر، ذلك الوهم الذي لا يتفق مع كلامه لا على الإجمال ولا التفصيل.

المبحث الخامس ( موقف علماء المالكية عموماً )

إن كلمة (المالكية) كادت تكون مرادفة للأشعرية، هذه حقيقة تاريخية وواقعية تكاد تكون رأي العين، فكل من اطلع على بعض من طبقات الأئمة والعلماء عموماً والمالكية خصوصاً، وأحاط علماً بشيء من تاريخ الإسلام ومدارسه الفكرية، ونظر على عجل في تراث هذه الأمة العريض، لم يشك لحظة واحدة أن الأشعرية دم يجري في عروق مذهب المالكية، ولا ارتاب في أن منكر ذلك إما جاهل أو كذاب، يجادل في وجود الشمس وهي مشرقة في رابعة النهار.

لقد شهد الموافق والمخالف بهذه الحقيقة الناصعة، فيقول الإمام الحافظ ابن عساكر الدمشقي في التبيين ٤١٠ وهو يذكر الأشعري :

(( وهل من الفقهاء من الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق له أو منتسب إليه)) اهـ.

ونقل التاج السبكي في طبقات الشافعية الكبرى ٢ / ٢٥٩ ذلك أيضاً عن أئمة منهم الإمام شيخ الإسلام سلطان العلماء العز بن عبدالسلام فقال :

(( وحكي لنا لك مقالة الشيخ ابن عبد السلام ومن سبقه إلى مثلها وتلاه على قولها حيث ذكروا أن الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة أشعريون، هذه عبارة ابن عبد السلام شيخ الشافعية وابن الحاجب شيخ المالكية والحصيري شيخ الحنفية، ومن كلام ابن عساكر حافظ هذه الأمة الثقة الثبت: هل من الفقهاء الحنفية والمالكية والشافعية إلا موافق الأشعري ومنتسب إليه وراض بحميد سعيه في دين الله ومثن بكثرة العلم عليه )) اهـ.

ويقول الإمام التاج السبكي في طبقاته ٢٦١/٢ :

(( أنا أعلم أن المالكية كلهم أشاعرة ولا أستثني أحدا .. )) اهـ.

وقال في ٢٥٦/٢ :

(( أئمة المالكية كانوا يناضلون عن مذهب الأشعري ويبدعون من خالفه ولا حاجة إلى شرح ذلك فإن المالكية أخص الناس بالأشعري إذ لا نحفظ مالكيًا غير أشعري ..)) اهـ.

نبذة تاريخية عن المدرسة المالكية الأشعرية :

لو رحنا نتكلم عن الأشاعرة كلهم فهذا يعني أننا نحاول سرد أسماء أغلب علماء أهل السنة الأفاضل، ولو قصرنا ذلك على علماء المالكية لطال الأمر أيضاً، ولكن لنقم بإطلالة تاريخية سريعة على أهم المدارس المتمثلة في كبار الأئمة من المالكية الذين كانوا على رأي الأشعري ومذهبه:

لا أحد من أهل العلم يجهل منزلة الإمام أبي بكر الأبهري شيخ المالكية في العراق على الإطلاق المتوفى سنة ٣٧٥هـ، وهذا الإمام كان مجلسه يضم كوكبة من علماء المالكية أشهرهم القاضي الباقلاني ذو الحظوة لدى الأبهري حتى أنه أوصى له بمائة وخمسين مثقالاً وكان الأبهري إذا فضل أحداً أعطاه مائة فقط، وهذا الإمام هو الذي تعلم عنده ابن خويزمنداد.. ومع ذلك لا نرى شيخه الأبهري مبايناً للكلام والمتكلمين من أهل السنة، بل كان يحضر مجالس النظر بين أهل السنة والمعتزلة، ويخبر عنها بنفسه كما في ترتيب المدارك ٤٧٢/٢ أن الأبهري قال :

(( اجتمعنا في جماعة من أهل العلم والصلاح، وقد تناظر رجل من أهل السنة مع رجل معتزلي، فطال بينهما الكلام، فجاء المساء فلم يظهر أحدهما على صاحبه، فقال السنّي : هذا مجلس انقضى على غير فلاح، وقد حضرنا قوم صالحون فلنخلص الدعاء للمحق منا بأن يثبت الله تعالى القرآن في صدره، وينسيه المبطل، فدعونا، قال الأبهري : فأقرّ لي المعتزلي بعد ذلك أنه نسي القرآن حتى كأنه ما رآه ))اهـ.

وأما شيخ المالكية الثاني وقرين الأبهري فهو: الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن مجاهد مقدم المالكية وهو تلميذ أبي الحسن الأشعري، وعليه درس الباقلاني الكلام، أثنى عليه الأئمة ومنهم شيخ أهل الحديث الحافظ البرقاني ثناء حسناً كما في الترتيب ٤٧٦/٢ وتاريخ بغداد، وكان طلاب العلم من المالكية من أصحاب ابن زيد القيرواني في المغرب وغيره يرحلون إليه في العراق ليأخذوا عنه وعن الأبهري وأصحابهم، وكانت المراسلات تدور بينه وبين ابن أبي زيد القيرواني شيخ المالكية كما سيأتي.

ثم كان مقدم المالكية وشيخهم في العراق بعد الأبهري وابن مجاهد تلميذهما : الإمام الكبير نادرة الوجود القاضي شيخ السنة ولسان الأمة أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة ٤٠٣هـ، الذي شهد له الموافق والمخالف، ومن طالع ترجمته في تاريخ بغداد أو ترتيب مدارك القاضي عياض قضى العجب، وقد كان هذا الإمام مقدماً لدى شيخ المالكية بالعراق أبي بكر الأبهري كما مر، وهو وارث علم ابن مجاهد أيضاً كما تقدم، وقد كان هؤلاء ومن حولهم من الأصحاب هم من يشار إليهم بأنهم المالكية وأعيان أهل السنة في بغداد، وقد كان ما بينهم وبين مشايخ أهل الحديث والشافعية والحنابلة عامراً طيباً، بذلك على هذا ما رواه الحافظ ابن عساكر بسنده إلى الشريف أبي علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي الحنبلي قال :

(( حضرت دار شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحرث التميمي سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه حضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكيين وأبو القسم الداركي شيخ الشافعيين وأبو الحسن طاهر بن الحسن شيخ أصحاب الحديث وأبو الحسين بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلمين وصاحبه أبو بكر بن الباقلاني في دار شيخنا أبي الحسن التميمي شيخ الحنابلة قال أبو علي: لو سقط السقف عليهم لم يبق بالعراق من يقفي في حادثة يشبه واحداً منهم ))اهـ. تبين ٣٩٠. ثم لم تزل فرق أهل السنة تعظم الباقلاني من بعد هؤلاء وتجله، خاصة مشايخ الحنابلة، وقد قال الإمام أبو عبد الله الحسين بن محمد الدامغاني الحنبلي :

(( لما قدم القاضي الإمام أبو بكر الأشعري بغداد دعاه الشيخ أبو الحسن التميمي الحنبلي رحمهما الله إمام عصره في مذهبه وشيخ مصره في رهطه وحضر الشيخ أبو عبد الله بن مجاهد والشيخ أبو الحسين محمد بن أحمد بن سمعون وأبو الحسن الفقيه فجرت مسألة الاجتهاد بين القاضي أبي بكر وبين أبي عبد الله بن مجاهد وتعلق الكلام بينهما إلى أن انفجر عمود الصبح وظهر كلام القاضي عليه رحمهما الله وكان أبو الحسن التميمي الحنبلي يقول لأصحابه تمسكوا بهذا الرجل فليس للسنة عنه غنى أبداً، قال وسمعت الشيخ أبا الفضل التميمي الحنبلي رحمه الله وهو عبد الواحد بن أبي الحسن بن عبد العزيز بن الحرث يقول : اجتمع رأسي ورأس القاضي أبي بكر محمد بن الطيب على مخدة واحدة سبع سنين، قال الشيخ أبو عبد الله : وحضر الشيخ أبو الفضل التميمي يوم وفاته العزاء حافياً مع إخوته وأصحابه وأمر أن ينادى بين يدي جنازته هذا ناصر السنة والدين هذا إمام المسلمين هذا الذي كان يذب عن الشريعة ألسنة المخالفين هذا الذي صنف سبعين ألف ورقة رداً على الملحدين وقعد للعزاء مع أصحابه ثلاثة أيام فلم يبرح وكان يزور تربته كل يوم جمعة في الدار ))اهـ. التبيين ٢٢١.

ففي هذه النقول ما يدل على ما كان بين هؤلاء من التصافي والود والاجتماع، وأنهم أعيان أهل السنة في العراق بلا خلاف، وأنت لا ترى أي أثر لابن خويزمنداد هنا؟؟.

فاذا انتقلنا إلى المغرب وشيخها الإمام أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني المتوفى سنة ٣٨٦هـ عمدة المالكيين هناك وجدنا ما بينه وبين المدرسة العراقية متصلًا وثيقًا، تجري بينهم المراسلات والمكاتبات وبعثات الطلبة كما مر، وما هو ابن مجاهد يكتب ابن أبي زيد بكتاب ملؤه الاحترام والإعزاز يصفه بما هو أهله ويثني على تصانيفه ويطلب إجازته بها فيقول : (( وقد وقع إلينا من تصنيفه - أيده الله - قطع من المختصر، وجدناه قد أحسن في نظمه، وألطف في جمع معانيه، وكشف ما كانت النفوس تتوق إليه، وكفى مؤونة الرحلة، وطلب المصنفات، بالكلام السهل، والمعاني البينة، التي تدل على حسن العناية، وكثرة المعرفة، والحرص على منافع الراغبين في العلم، والمتعلقين به، فأحسن الله أيها الشيخ جزاءك، وأجزل ثوابك )) ثم ذكر له ما بلغه من تصنيف النوادر ثم قال :

(( وما يتصل بنا من فضل الشيخ أيده الله قد نشطني إلى تعريف ما بنا من الحاجة إلى هذين الكتابين، وتطلع من قبلي من الطالبين لها، والشيخ أيده الله يتفضل في ذلك بما هو أهله، ويمن علي بذلك، فإني إليه وجماعة قبلي من إخوانه والراغبين في مذهب الإمام رضوان الله عليه يتطلعون إليه، فإن رأى الشيخ أيده الله، أن يتفضل بإنفاذها، بعد عرضها بحضرته وإجازتها لي ولغيري من أصحابنا ممن آثر ذلك وأحبه )) اهـ ثم سأله الدعاء وأرخ الكتاب بسنة ٣٦٨هـ.

فأجابه الشيخ ابن أبي زيد القيرواني قائلا : (( وعندنا من أخبار الشيخ الطيبة ما تعم مسرته من نصرته في هذا المذهب وذبه عنه ومحاماته عليه حماه الله عز وجل مكروهه من صحته )) اهـ. ثم شكره وأبدى سروره بكتابه ومودته له، كما أجازته حسب طلبه، انظر ترتيب المدارك ٤٧٧/٢.

وكان تنقل الطلبة المالكية من أصحاب ابن أبي زيد بينه وبين ابن مجاهد مشهورا، وإلى ابن مجاهد والأبهري والباقلاني وأصحابهم كانت رحلة طلبية العلم من المالكية آنذاك، وقد أرسل ابن أبي زيد مختصره الفقهي مقرونا بالإجازة للشيخ ابن مجاهد وطلابه مع الشيخين محمد بن خلدون وإسماعيل بن عذرة المالكيين وقد حضرا لدى ابن مجاهد ودرسا عنده العقيدة، انظر الترتيب ٤٧٨/٢.

وقد كانت المناظرات تجري في مجلس ابن أبي زيد على رسم أهل الكلام ويقوم بذلك أصحابه منهم الإمام المقدم : أبو القاسم عبدالرحمن بن عبدالمؤمن المكي ثم القيرواني المالكي، تلميذ ابن مجاهد وصاحب ابن أبي زيد القيرواني وشيخهم، فيسنتفدون منه ويقدمونه.

وقد كان أحد المعتزلة كتب من بغداد كتابا وجهه إلى المالكية بالقيروان يطعن فيه على الإمام الأشعري ويكفره فأجابه الإمام ابن أبي زيد القيرواني فقال :

(( .. وذكر الأشعري فنسبته إلى الكفر وقلت إنه كان مشهورا بالكفر وهذا ما علمنا أن أحدا رماه بالكفر غيرك ولم تذكر الذي كفر به وكيف يكون مشهورا بالكفر من لم ينسب هذا إليه أحد علمناه في عصره ولا بعد عصره، وقلت إنه قدم بغداد ولم يقرب أحدا من المالكيين ولا من آل حماد بن زيد لعلمه أنهم يعتقدون أنه كافر ولم تذكر ما الذي كفروه به ))

ثم ذكر ابن أبي زيد تشنيع المعتزلي على الأشعري في مسألة التلاوة والتملو والقراءة والمقروء ثم قال ابن أبي زيد في الرد على المعتزلي :

(( والقارىء إذا تلا كتاب الله لو جاز أن يقال أن كلام هذا القارىء كلام الله على الحقيقة لفسد هذا، لأن كلام القارىء محدث ويفنى كلامه ويذول، وكلام الله ليس بمحدث ولا يفنى وهو صفة من صفاته، وصفته لا تكون صفة لغيره، وهذا قول محمد بن إسماعيل البخاري وداود الأصبهاني وغيرهما ممن تكلم في هذا، وكلام محمد بن سحنون إمام المغرب، وكلام سعيد بن محمد بن الحداد، وكان من المتكلمين من أهل السنة وممن يرد على الجهمية ))

ثم ذكر ابن أبي زيد حكاية أحمد بن حنبل رحمه الله مع أبي طالب فعن أبي محمد فوران قال : (( جاءني صالح بن أحمد - وأبو بكر المرورودي عندي - فدعاني إلى أبي عبد الله وقال لي: إنه قد بلغ أبي أن أبا طالب قد حكى عنه إنه يقول لفظي بالقرآن غير مخلوق فقوموا إليه فقمتم واتبعتني صالح وأبو بكر فدار صالح من بابيه فدخلنا على أبي عبد الله ووافانا صالح من بابيه فإذا أبو عبد الله غضبان شديد الغضب يتبين الغضب في وجهه فقال لأبي بكر اذهب جنني بأبي طالب فجاء أبو طالب وجعلت أسكن أبا عبد الله قبل مجيء أبي طالب وأقول: له حرمة. فقعد بين يديه وهو يردد متغير الوجه فقال له أبو عبد الله حكيت عني أني قلت لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ قال: إنما حكيت عن نفسي، فقال له: لا تحك هذا عنك ولا عني فما سمعت عالما يقول هذا. وقال له: القرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف فقلت لأبي طالب - وأبو عبد الله يسمع - : إن كنت حكيت هذا لأحد فاذهب حتى تخبره أن أبا عبد الله قد نهى عن هذا ))

قال ابن أبي زيد :

(( وأبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل به يقتدى وقد أنكر هذا وما أنكر أبو عبد الله أنكرناه فكيف يسعك أن تكفر رجلا مسلما

بهذا ولا سيما رجل مشهور أنه يرد على أهل البدع وعلى القدرية الجهمية متمسك بالسنن مع قول من قاله معه من البخاري وغيره!!! فلو ذكرت أمرا يجب تكفير قائله عند أهل السنة كان لك ذلك لأننا لا نعتقد أننا نقلد في معنى التوحيد والاعتقادات الأشعري خاصة، ولكن لا يحل لنا أن نكفره أو نبذعه إلا بأمر لا شك فيه عند العلماء وإذا رأينا من فروع أقاويله شيئا ينفرد به تركناه ولا نهجم بالتضليل والتبذيع بما فيه الريب، وكل قائل مسؤل عن قوله ((اهـ. التبیین ٤٠٥)).

فقد أبان ابن أبي زيد القيرواني شيخ المالكية في المغرب عن عقيدته الأشعرية، وأن على عقيدته جبالا من المالكية نسبهم إلى المعرفة بالكلام والجدل والمناظرة لأهل البدع منهم :  
إمام المغرب محمد بن الإمام شيخ المالكية سحنون، والإمام سعيد بن محمد بن الحداد المالكي، وقدرهما عظيم في مذهب مالك لا يخفى على مطلع.

هذا وقد نبغ جماعة من أصحاب ابن أبي زيد القيرواني المالكية ورثوا عنه علمه منهم: أبو بكر ابن عبدالرحمن، وأبو القاسم البرادعي، والليبي، وابنا الأجدابي، وأبو عبدالله الخواص، وأبو محمد مكي المقرئ المشهور، وأبو عبدالله بن الحذاء، وأبو بكر بن موهب المقرئ، وأبو مروان القنازعي، وأبو عبدالله ابن العجوز، وأبو محمد بن غالب، وخلف بن ناصر، وغيرهم من أهل القيروان والأندلس، والمغرب الأقصى.

وهذا الإمام شيخ المالكية وعالمهم من أهل المغرب في عصره، البارع في شتى العلوم والفنون من الكلام والحديث والتفسير والفقه وغيرها الإمام أبو الحسن علي بن محمد القابسي المالكي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ له رسالة في الذب عن أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه أحسن الثناء عليه فيها وذكر فضله وإمامته وقد قال في جواب لبعض أهل تونس :  
(( واعلموا أن أبا الحسن الأشعري رضي الله عنه لم يأت من هذا الأمر يعني الكلام إلا ما أراد به إيضاح السنن والتنبيه عليها ودفع الشبه عنها فهمه من فهمه بفضل الله عليه وخفي عن خفي يقسم الله له، وما أبو الحسن الأشعري إلا واحد من جملة القائمين بنصر الحق، ما سمعنا من أهل الإنصاف من يؤخره عن رتبته تلك، ولا من يؤثر عليه في عصره غيره، ومن بعده من أهل الحق سلكوا سبيله في القيام بأمر الله عز وجل والذب عن دينه حسب اجتهادهم، قال وأما قولكم : (وإن كان التوحيد لا يتم إلا بمقالة الأشعري) فهذا يدل على أنكم فهمتم أن الأشعري قال في التوحيد قولاً خرج به عن أهل الحق، فإن كان قد نُسب هذا المعنى عندكم إلى الأشعري فقد أبطل من قال ذلك عليه، لقد مات الأشعري رضي الله عنه يوم مات وأهل السنة باكون عليه وأهل البدع مستريحون منه فما عرفه من وصفه بغير هذا )) تبیین ١٢٣.

وهذا الإمام من مشاهير رواة صحيح البخاري في المغرب، وقد تخرج على الإمام القابسي جمع من نبلاء المالكية منهم : أبو بكر عتيق السوسي، وأبو القاسم بن الحساري، وابن سمحان، وابن أبي طالب العابد، وأبو عمرو بن عتاب، وابن محرز، وابن سفيان، وأبو محمد اللوي، وأبو حفص العطار، وأبو عبدالله الخواص، والمهلب بن أبي صفرة، وحاتم بن محمد الأظربلسي وغيرهم من شتى البلاد الشرقية والمغربية.

وقد كان من أصحاب هذا القابسي الإمام المحدث أبو محمد عبدالله بن إبراهيم الأصيلي المالكي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ، وهو من علماء الكلام والنظر، والمبرز في الحديث، وهو من تلاميذ الأبهري، وهو شيخ الإمام المتكلم أبي عمران الفاسي، ومما عرف به روايته الشهيرة لصحيح البخاري من طريق المروزي عن الفريري عن البخاري، ولما طلب من أبي يحيى بن الأشج إسماع صحيح البخاري قال:

(( لا يراني الله أحدث به والأصيلي حي أبدا )) اهـ.

أما حافظ المشرق وأشهر رواة صحيح البخاري وهو الذي اعتمد على روايته الحافظ ابن حجر فهو الإمام الحافظ عبد بن أحمد أبو ذر الهروي المالكي الأشعري المتوفى سنة ٤٣٤ هـ، الأخذ هو وكريمة بنت أحد المروزي تلميذة الباقلاني عن الكشميهني والمستملي عن الفريري عن البخاري، وهو مالكي المذهب أشعري الاعتقاد، وله في ذلك قصة :

(( قال أبو الوليد الباجي في كتاب (اختصار فرق الفقهاء) من تأليفه، في ذكر القاضي ابن الباقلاني: لقد أخبرني الشيخ أبو ذر وكان يميل إلى مذهبه، فسألته: من أين لك هذا؟ قال: إني كنت ماشيا ببغداد مع الحافظ الدارقطني، فلقينا أبا بكر بن الطيب فالتزمه الشيخ أبو الحسن، وقبل وجهه وعينيه، فلما فارقتاه قلت له: من هذا الذي صنعت به ما لم أعتقد أنك تصنعه وأنت إمام وقتك؟؟؟!! فقال هذا إمام المسلمين، والذاب عن الدين، هذا القاضي أبو بكر محمد بن الطيب. قال أبو ذر: فمن ذلك الوقت تكررت إليه مع أبي، كل بلد دخلته من بلاد خراسان وغيرها لا يشار فيها إلى أحد من أهل السنة إلا من كان على مذهبه وطريقه )) اهـ .

انظر تذكرة الحفاظ ١١٠٥/٣ وسير أعلام النبلاء ٥٥٨/١٧ وغيرهما.

فهذا أبو ذر الهروي يشهد بأنه لم ير أحدا من أهل السنة يشار إليه إلا من كان على طريقة الباقلاني الأشعري، وقد رأيت ما صنع الإمام الحافظ أبو الحسن الدارقطني به من التبجيل، فأني شيء هو ابن خويزمنداد!!!

ومن علماء الأشاعرة المالكية الكبار القاضي الإمام أبو محمد عبد الوهاب بن علي بن نصر البغدادي المتوفى سنة ٤٢٢ هـ، الأخذ عن طبقة تلاميذ الأبهري ومن أشهر شيوخه القاضي الباقلاني، درس عليه الكلام والأصول وصحبه، وصنف التصانيف المفيدة الشهيرة في المذهب، وعليه تخرج جماعة منهم: ابن عمرو، وأبو الفضل مسلم الدمشقي، وأبو العباس بن قشير الدمشقي، وعبدالحق بن هارون الفقيه، وأبو عبد الله المازري البغدادي، وأبو بكر الخطيب الحافظ، والقاضي ابن شماخ الغافقي، ومهدي بن يوسف وغيرهم.

أما أبو عمرو عثمان بن سعيد الداني المالكي شيخ المقرئين في عصره الأشعري الشهير المتوفى سنة ٤٤٠ هـ فحدث ولا حرج، وكتبه معروفة مشهورة، رحل إلى الإمام الباقلاني وأخذ عنه الاعتقاد، وربما نقل عنه في كتبه نصوصا كاملة كما في الرسالة الوافية له، ولا حاجة للإطالة في مثله.

ومنهم أبو الفضل بن عمرو البغدادي المالكي وكان فقيها أصوليا صالحا مات سنة ٤٥٢ هـ . وأبو الطاهر البغدادي الواعظ ثم القيرواني الذي يقول فيه أبو عمران الفاسي: ((لو كان علم الكلام طيلسانا ما تطيلس به إلا أبو الطاهر البغدادي)) اهـ. التبيين ١٢١.

ثم منهم الإمام ذو الشأن الكبير أبو عمران موسى بن عيسى الفاسي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ رحل وطوف وأخذ عن جلة الأئمة والعلماء ودرس الأصول على الإمام القاضي الباقلاني، وكان الإمام الباقلاني يقدمه ويجله ويعجبه حفظه ويقول له: ((لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر - وكان إذ ذاك بالموصل - لاجتمع فيها علم مالك، أنت تحفظه وهو ينصره، ولو رآكم مالك لسر بكما)) اهـ.

وهذا الإمام قد تخرج به خلق كثير من أئمة المالكيين من الفاسيين والسبتيين والأندلسيين فطارت فتاويه في المشرق والمغرب، واعتنى الناس بقوله، وكان يجلس للمذاكرة والسماع في داره من غدة إلى الظهر، فلا يتكلم بشيء إلا كتب عنه إلى أن مات رحمه الله وترجمته في الترتيب ٧٠٣/٢ لطيفة حسنة.

وأما الإمام الهمام الحافظ الفقيه المتكلم الكبير أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة ٤٧٤ هـ فسبحان من أمده بمدد العلم، وكملة بزيئة الفهم، فله دره من إمام يضيق عن جملة من فضائله المقام، فهو أشهر من الإشتهار، طوف البلاد ورحل وتزود، ودرس الأصول على طبقة أصحاب الباقلاني كالسمناني وغيره، وتلاميذه أئمة الأقطار والأمصار، ولو لم يكن فيهم إلا أبو الوليد الطرطوشي المالكي الشهير لكفى، وحسبه أن الخطيب البغدادي نزل للرواية عنه، ويقول القاضي عياض بن موسى: سألت عنه شيخنا قاضي قضاة الشرق أبا علي الصديقي الحافظ صاحبه فقال لي: ((هو أحد أئمة المسلمين لا يسأل عن مثله، ما رأيت مثله)) اهـ . وأنا أقول لك طالع ترجمته وأرحنا .

نعم، ولو رحنا نتكلم عن طبقات المالكية الأشاعرة على التفصيل لانعدت الألسن، وتكسرت الأقلام ونفذ المداد، ولو قصدنا إلى من بعد هؤلاء لعظم الخطب وباد الصبر وعدم الاستعداد، فكيف ترى لو صرنا إلى طبقة الإمام الحافظ أبي علي الغساني وأبي علي الصديقي وابن سعادة ثم القاضي الإمام أبي بكر بن العربي المالكي ثم القاضي عياض بن موسى اليحصبي وابن بشكوال وابن حمدين وأبي عبد الله المازري وأبي الأصمغ بن أبي البحر وأبي بكر بن أحمد بن طاهر وأبي بكر يحيى بن موسى .. ومررنا بابن خير الإشبيلي وطبقته وأقرانهم وطبقات من بعدهم حتى نصل إلى طبقة أبي عمرو بن الحاجب ثم طبقة ابن دقيق العيد فمن بعدهم!!! كيف ترى يكون الحال!!!

ولكن على الإجمال نقول الآن :

قال الإمام أبو عبد الله محمد بن موسى بن عمار الكلاعي المايرقي الفقيه المالكي الأشعري إجمالا عن الإمام الأشعري: (( فلما كثرت تواليه ونصر مذهب السنة وبسطه تعلق بها أهل السنة من المالكية والشافعية وبعض الحنفية فأهل السنة بالمغرب والمشرق بلسانه يتكلمون وبحجته يحتجون .. فنسب من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب إلى الأشعري .. )) اهـ. التبيين ١١٧ .

وعلى الإجمال أيضا يقول عنه الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المالكي الأشعري في العواصم من القواصم ٢٧ : (( واحتاج شيخ السنة وصاحبه لسان الأمة ومن دارت عليه من طبقاتهم الملة وأعيان السنة الجلة إلى أن يعقدوا في ذلك أبوابا

ويجمعه كتاباً فأحسنوا عن الحق مناباً ..)) ثم قال ٧١ :

(( ولم يتعرض لحماية الدين إلا أحاد اختارهم الله له، ونصبتهم للذنب عنه، فأولهم أبو الحسن الأشعري - وعارضه ابن ورقاء أمير البصرة - فقام به، وجرت بينهما حروب وجدال مذكورة، وتواتر بعده الأصحاب في الأحقاب على الأعقاب فحفظ الله دينه على من أراد هدايته، فلم يبق وجه من البيان إلا أوضحوه، ولا سبيل من الأدلة إلا نهجوها )) ثم قال ٨٠ :

(( وعلى كل حال فالذي أراه لكم على الإطلاق أن تقتصروا على كتب علمائنا الأشعرية وعلى العبارات الإسلامية والأدلة القرآنية )) اهـ.

وعلى الإجمال أيضاً يقول الإمام القاضي أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي المالكي الشهير المتوفى سنة ٤٧٤ هـ يقول في المنتقى شرح الموطأ ٢٠٤/٧ ما نصه :

(( وقد بلغ القاضي أبو بكر بن الطيب المالكي في كتبه من هذا الباب ما لا مزيد عليه، ولا حاجة بالطالب إلا اليسير منه، وكان الشيخ أبو ذر [عبد] بن أحمد الهروي مالِكياً وكان على مذهبه وممن أخذ عنه، وكان الشيخ أبو عمران موسى بن حاج الفاسي قد رحل إليه وأخذ عنه وتبعه، وكان الشيخ أبو محمد بن أبي زيد والشيخ أبو الحسن علي بن محمد القاسبي يتبعان مذهبه، وقرأ عليه القاضي أبو محمد عبد الوهاب بن نصر وهو ممن أخذ عنه واتبعه، وعلى ذلك أدركت علماء شيوخوا بالمشرق، وأهل هذه المقالة هم الذين يشار إليهم بأنهم أهل السنة )) اهـ.

ونختم هنا بما سأل به علي بن يوسف بن تاشفين أمير المسلمين بمراكش وثاني ملوك دولة المرابطين المتوفى سنة ٥٣٧ هـ الإمام القاضي الأوحى ابن رشد الجد القرطبي المالكي رحمه الله تعالى الملقب عند المالكية بشيخ المذهب عن رأي المالكية في السادة الأشاعرة وحكم من ينتقصهم .

[ وهذا نص السؤال والجواب ] :

ما يقول الفقيه القاضي الأجل أبو الوليد وصل الله توفيقه وتسديده، ونهج إلى كل صالحة طريقه، في الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأبي إسحاق الإسفراييني، وأبي بكر الباقلاني، وأبي بكر بن فورك، وأبي المعالي، وأبي الوليد الباجي، ونظرانهم ممن ينتحل علم الكلام ويتكلم في أصول الديانات ويصنف للرد على أهل الأهواء؟ أم هم قادة حيرة وعمالية؟ وما تقول في قوم يسبونهم وينقصونهم، ويسبون كل من ينتمي إلى علم الأشعرية، ويكفرونهم ويتبرؤون منهم، وينحرفون بالولاية عنهم، ويعتقدون أنهم على ضلالة، وخائضون في جهالة، فماذا يقال لهم ويصنع بهم ويعتقد فيهم؟ أيتروك على أهوائهم، أم يكف عن غلوائهم؟ وهل ذلك جرحه في أديانهم ودخل في إيمانهم؟ وهل تجوز الصلاة وراءهم أم لا؟ بين لنا مقدار الأئمة المذكورين، ومحلهم من الدين، وأفصح لنا عن حال المنتقص لهم، والمنحرف عنهم، وحال المتولي لهم المحب فيهم، مجملاً مفصلاً، وما جوراً إن شاء الله تعالى .

[ فأجابه ابن رشد رحمه الله ] :

تصفحت عصمنا الله وإياك سؤالك هذا، ووقفت عليه، وهؤلاء الذين سميت من العلماء أئمة خير وهدى، وممن يجب بهم الاقتداء، لأنهم قاموا بنصر الشريعة، وأبطلوا شبه أهل الزيغ والضلالة، وأوضحوا المشكلات، وبينوا ما يجب أن يدان به من المعتقدات، فهم بمعرفتهم بأصول الديانات العلماء على الحقيقة، لعلمهم بالله عز وجل وما يجب له، وما يجوز عليه، وما ينتفي عنه، إذ لا تُعلم الفروع إلا بعد معرفة الأصول، فمن الواجب أن يُعترف بفضائلهم، ويُقر لهم بسوابقهم، فهم الذين عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : ( يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدو له، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين ) .

فلا يعتد أنهم على ضلالة وجهالة إلا عبي جاهل، أو مبتدع زائغ عن الحق مائل، ولا يسبهم وينسب إليهم خلاف ما هم عليه إلا فاسق، وقد قال الله عز وجل : ( والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً ) . فيجب أن يُبصر الجاهل منهم، ويؤدب الفاسق، ويستتاب المبتدع الزائغ عن الحق إذا كان مستسهلاً ببدعة، فإن تاب وإلا ضرب أبداً حتى يتوب، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بصبيغ المتهم في اعتقاده، من ضربه إياه حتى قال : ( يا أمير المؤمنين إن كنت تريد دوائي فقد بلغت مني موضع الداء، وإن كنت تريد قتلي فأجهز عليّ ) فخلى سبيله، والله أسأله العصمة والتوفيق برحمته، قاله: محمد بن رشد.

من فتاواه المطبوعة ( ٢ / ٨٠٢ ) ط ١ / دار الغرب الإسلامي / بيروت / ١٤٠٧ هـ .

أفلا يستحيي من الله من يدع كل أئمة المذهب ويتشبهت بسراب ببيعة يعزى لابن خويزمنداد؟!!!

المبحث السادس ( مفهوم النص عند الحشوية وبيان تناقضهم )

بعد كل ما قدمناه يتضح لنا أن المتمسك بالمفهوم الخاطئ الجانح لنص كلام ابن خويزمنداد - والذي بات شذر مذر - إنما يهدف إلى تدييع أتباع الأئمة الأربعة عامة وأتباع مذهب الإمام مالك رضي الله عنهم خاصة، هذا واضح جلي بعد الذي تقدم إن شاء الله تعالى.

لكن لنا أن نتعجب كل العجب ممن يبني على كلام ابن خويزمنداد تدييع المتكلمين عموماً بحيث يكون كل من خاض في الكلام مبتدعاً، من العجيب أن من يتمسك بهذا تراه هو نفسه يمجّد المتكلمين ويثني عليهم ويصفهم بأعلى الأوصاف وأفخمها !!.

نعم إن أول من يندرج ضمن المتكلمين، هو سيد المتكلمين في عصره والقائم بنصرة السنة على أتم وجه هو الإمام الأكبر شيخ أهل السنة أبو الحسن الأشعري رضي الله عنه، وكلام ابن خويزمنداد الذي لا يفرق بين أشعري وغير أشعري - حسب المفهوم الجانح - يشمل بظاهره وعمومه هذا الإمام الهمام، فيلزم من اعتد بالمفهوم الخاطئ لكلام ابن خويزمنداد أن يعتبر هذا الإمام رأس المبتدعين في عصره !! ولكن الذي حدث أن المؤسسات العلمية المتعصبة في هذا العصر لمثل كلام ابن خويزمنداد ناقضت نفسها فجعلت من رأس المتكلمين ما تراه في هذه الصورة :

postid=40468&=http://forum.rayaheen.net/attachment.php?s

الإبانة عن أصول الديانة

لإمام المتكلمين، ناصر سنة سيد المرسلين، والذاب عن الدين، الشيخ أبي الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله ابن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم المتوفى سنة بضع وعشرين وثلاثمائة.

فانظر واعجب كيف صار إمام المتكلمين بهذه المنزلة !! مع أن من بنى منهجه على المفهوم المغلوط لنص ابن خويزمنداد لا يمكن أن يصل إلى هذه النتيجة أبداً، ذلك أن كل متكلم عنده فهو مبتدع ولو كان سنياً !! أوليس هذا إذن من التناقض الذي تحمله هذه الفئة المتأخرة الجامعة لأصناف من الشذوذات والغرائب؟؟!! ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن المباحث الفلسفية الكلامية صارت شائعة وذائعة في كثير من نشراتهم ومطبوعاتهم، ومنها كتب ابن تيمية التي تعج بهذه اللغة الكلامية والآراء الفلسفية وإن كانت تلبس عنده - بشيء من الالتفاف - لبوس النصوص السلفية!!.

إن القول بأن كلام الله تعالى مثلاً : ( قديم النوع حادث الأحاد ) !! بدعة كلامية وفكرة فلسفية، لا أثر لها في أي تراث سلفي، ولا تمت إلى القرون المفضلة بصلة، ومع هذا نراها ماثلة لدى الفئة الثملة من الحشو يتصورونها فكرة سلفية !! أضف إلى ذلك أمثلة أخرى ونماذج شتى لدى هذه الزمرة التي توهمت أنها تنتفع شيئاً بما يعزى لابن خويزمنداد ولا تدري أنها - وحسب توهماتنا - ممن يشملهم ما توهموه !! ولو كان ابن خويزمنداد على ما توهموه وظنوه لكان حكمه عليهم وعلى كتبهم بالبدعة والضلال أمراً لا مفر منه، وقد تكون لهم محاولات للجواب على مثل هذا للتملص من اللوازم الواضحة ولكن دون جدوى.

الخاتمة

بتوفيق من الله وفضل انتهى ما قصدت من الكلام والانتقاد، على نص ابن خويزمنداد، وقد تبين لكل منصف ذي رأي رشيد، أن مثل هذا النص لا يركن إليه إلا كل جاهل عنيد، وشيطان مريد، يهدف من ورائه إلى إضلال العوام وإفساد كل إمعة، ويسعى إلى تضليل أئمة الدين والعلماء العاملين من أتباع المذاهب الأربعة، وخاصة أئمة السادة المالكية، ذوي الرتب العلية، فقد أبنا ما فيه سنداً ومنتناً، وأشبغنا الكلام عليه مضموناً ومعنى، واتضح لكل إنسان فاضل ماجد، أن الأئمة والعلماء المالكية إنما هم والأشاعرة شيء واحد، وأن مذهبهم مبني على تعظيم الأشعري وتبجيل أصحابه، وتضليل المنحرفين عنهم وإخراجهم عن المذهب من أوسع أبوابه، وقد أشرق الحق، وظهر الصدق، وما كان والله خفياً، فليحذر المسلم أن يعادي لله ولياً، فيؤذن من الله

بحرب وما كان ربك نسيا، فالله العظيم نسأل التوفيق والثواب، وإليه المرجع والمآب، وصلى الله وسلم على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وسائر الأصحاب.